في الأدب الأندلسي

(مقدمة حضارية نقدية)

أ.د. حبيب القيسي

جامعة بغداد – كلية الآداب

تمهيد

في البدء ، لابد من الإشارة إلى أن تاريخ الأدب العربي في الأندلس كان يدرس من قبل المستشرقين (وبعبارة أدق المستعربين) والباحثين الغربيين حتى أوائل القرن العشرين ضمن الإطار التاريخي العام للحضارة العربية الإسلامية في الأندلس باعتباره أحد موضوعاتها التي لا تتوفر عنها مصادرها التاريخية على وجه الاستقلال ، وبالحجم الذي يغطي حاجة البحث والدراسة ، مما أدى إلى أن تكون للمراكز – الاستشراقية في العالم حريتها المطلقة في تحديد طبيعة وحجم النشاط البحثي في هذه الموضوعات ، مستغلة قلة هذه المصادر ، مع استيلائها على القسم الأعظم من هذا القليل ، ونتج عن ذلك نظريات وآراء متميزة ضد الحضارة العربية الإسلامية حاول إقرارها المستشرقون والباحثون الغربيون من خلال التضليل وتشويه الحقائق خدمة لأغراض باتت معروفة تماماً ، بما تعكسه من ميز عنصري ، وديني ، وسياسي ، مما لا يمت إلى العلم أو المنهجية العلمية الموضوعية بأية صلة .

وفي سياق التطور الحضاري الإنساني ، تأتي عملية ما يسمى بالتناضح الثقافي في مقدمة الأسباب لهذا التطور ، باعتبارها شرطاً أساسياً للعلاقة الجدلية القائمة بينها وبين الحضارة .. من هذا المنطلق نفهم كيف أخذت الكثير من الوثائق التاريخية ، ومنها الأدبية ، طريقها إلى الظهور في مختلف المراكز الاستشراقية ، وغيرها .. مما كشف الكثير من الحقائق التاريخية عن الأدب الأندلسي ، التي

تشكل تفنيداً علمياً لنظريات المستشرقين المغرضة . وخير مثال على ذلك ديوان الشاعر القرطبي الكبير (ابن قزمان) الذي سماه المستشرقون بأمير الشعراء ، ووصفوا ديوانه بأنه أبرز حدث أدبي في أوربا العصور الوسطى ، وقد توصل المستعرب الأسباني الكبير خوليان ريبيرا Julian Ribera إلى نظريته المعروفة (النظرية العربية) بعد دراسته ديوان ابن قزمان ، التي تقرر تأثير الشعر العربي الأندلسي في الشعر الغنائي الأوربي ، مفنداً بذلك نظرية أوربية مضادة .. كما ظهرت مصادر تاريخية أخرى في الحضارة العربية في الأندلس فرضت نفسها على الدوائر الاستشراقية هنا وهناك ، وقد تضمنت قضايا في تاريخنا الحضاري تعكس آثاراً عميقة لتفاعل الحضارة العربية مع الحضارات الأخرى ، بما يؤكد أصالة حضارتنا وأتساع آفاقها الإنسانية .

ولعل من الأسباب التي أدت إلى أن يكون لمراكز الأستشراق في العالم موقفها السلبي المعروف من تأريخنا الحضاري هو الفراغ السياسي الكبير الذي عانت نتائجه الخطيرة أمتنا العربية في تاريخها وحضارتها ، بدءاً من عام ١٢٥٨م/٦٥٦ هـ حين فقدت أهم قلاعها الحضارية بأحتلال بغداد من قبل المغول، وما أعقب ذلك من جرائم وفظائع أرجعت البلاد والأمة إلى عصر الظلام والتخلف . ثم لم يمض على ذلك التاريخ اكثر من قرنين ونصف تقريباً إلا ويُبتلى الجناح الآخر للأمة العربية ، في الاندلس ، بنكسة تاريخية أخرى هي إخراج العرب من غرناطة ، آخر حضارات الإشعاع الحضاري في العالم آنذاك ، بعد أن وقع على معاهدة الاستسلام من قبل فرديناند وإيزابيلا ملكي أسبانيا من جهة ، وأبي عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر في غرناطة ، من جهة أخرى ، وذلك في الثلاثين من شهر كانون الأول ١٤٩١ ، تجلّت هذه النكبة الثانية بالعرب بصورة أبشع من سابقتها ، فقد فعل الأسبان نقيض ما عاهدوا عليه ، فقتّلوا ، وصادروا ، ليس الأموال حسب ، بل اللغة والدين والحضارة ، وأمعنوا في عمليات الطرد والحرق والتدمير وممارسة جميع أشكال التطهير العرقي ، فأحرقت خزائن كتب مشهورة في التاريخ بما كانت تضمه من كنوز المعرفة الإنسانية في

مختلف ميادين العلوم والفنون والآداب ، التي تألق بها تاريخ الأمة العربية في العصر الوسيط ، حيث كانت مركزاً متميزاً للإشعاع الحضاري على أوربا كلها ، حين كانت تعيش عصرها المتخلف بقرونه المظلمة المعروفة قبل أن تنتقل إلى العصر الذي أسمته بعصر الصناعة والنهضة . ولعل هذا يقدم تفسيراً لموقف (غربي) ذي منطلقات سيكولوجية أساسها هاجس عكسته آراء ونظريات لمستشرقين وباحثين غربيين في موضوعات الحضارة العربية الإسلامية ، وكأنه عملية ثأرية تحركها عقد الماضي ، ونزعة الاستعلاء ، مما يكون أساساً لتخطيط مواقف وتنفيذ سياسات استغلالاً لأنسب ظرف ممكن ، وهو تحول مركز الثقل العالمي من الحضارة العربية الإسلامية إلى (الغرب) بعد نكبتي بغداد (١٢٥٨) وغرناطة (١٤٩٢)، والذي هو أبرز تحول تاريخي في مسيرة الحضارة الإنسانية، أمتد حتى أوائل القرن العشرين وبدء حركات التحرر من استعمار بغيض فرضه (الغرب) على أمة العرب .. هكذا كانت هذه الدورة الأنتقالية الحضارية في تاريخ العالم بين العرب و (الغرب) ، أول أشكالية تاريخية في العلاقة بينهما – كما أتصور ، كانت لها نتائجها المعروفة ، مما نحاول أن نعرض لبعض جوانبها في هذا البحث .

إن تلك الظروف التاريخية التي مرت بها الأمة العربية بعد احتلال بغداد وسقوط غرناطة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، والتي كانت عصر تخلف وظلام ، كانت في الوقت نفسه دليلاً قوياً على أصالة هذه الأمة وعراقتها الحضارية ، فعلى الرغم من كونها أشد المواجهات بين الأمم وحضاراتها وعلى امتداد قرون طويلة ، غيب خلالها العرب عن مواصلة دورهم الحضاري في التاريخ ، تمكنت هذه الأمة من المحافظة على المرتكزات الأساسية لحضارتها بما فيها العقيدة ، والخلق ، والفكر الاجتماعي . وكانت اللغة العربية في مقدمة العوامل التي ساعدت على ذلك ، إذ أن هذه اللغة حسبها أنها لغة الوحي والتنزيل، فكانت حكمة الخالق العليم أن يودعها أسرار خلودها وعبقريتها بأن تكون نبراساً وهاجاً للفكر الإنساني الشامل ، ونبعاً فياضاً للعطاء الروحاني الأصيل ، فأصبحت

بذلك تمثل حياة الأمة ومستودع تراثها الذي يؤصل وجودها ويرسم لـــها طريـــق التطور والصعود .

لقد تولدت لدى الأوربيين اتجاهات جديدة في مجال التعامل مع الحضـــارة العربية الإسلامية ، وبخاصة في الظروف التي مال فيها ميزان القوى لصالحـــهم في ميدان العلاقات الدولية ، فقسموا الأمم والشعوب الى عالمين : أحدهما متحضر وفي صميمه أوربا ، والثاني غير متحضر ، وفي مرتبة عقلية أدنى ، ومنه العرب .. ورسم هؤلاء الأوربيون برامج عديدة لتفعيل خططهم الراميـــة إلـــى التحكـــم بمصير الشعب العربي في كل أوطانه ، اقتصادياً ، وسياسياً ، وذلـــك باســـتلاب أرادته والتحكم بثرواته .. من خلال واجهات الثقافـــة والديـــن ، وتحـــت لافتـــة (الاستشراق) ، فكان للمستشرقين وحتى الآن ، دور خطير في اخـــتراق (الأمـــن الثقافي) العربي ، وتمهيد الطريق لتنفيذ جميع المخططات العدوانية التـــي تعدهـــا مراكز الاستشراق المعروفة . وكان من بين الوســـائل التـــي اعتمدتـــها دوائـــر الاستشراق في نشاطاتها عمليات الغصب والنهب ، والسرقة ، للكثير من مصـــادر التراث العربي الإسلامي من مواطنها الأصلية وترحيلها إلى البلـــدان الأوربيـــة ، وذلك خلال عهود الاستعمار والحماية والاستقلال المزيف .. وأن ما هو معـــروف عن (المتحف البريطاني ومكتبته) يؤيد ذلك ، فأن هذه المؤسسة (المركبة) تشـــكل في نظر الإنكليز أهمية بالغة من الناحيتين العلمية والاقتصادية ، مما جعلها فـــي المرتبة الثانية ، بعد الأسطول البريطاني ، من حيث اهتمام الحكومة بها .. وهـــو مما يشير إلى أن البريطانيين ، وحتى الجنود منهم ، وبالإضافـــة إلـــى عنـــاصر الأجهزة الدبلوماسية ، كانوا يقومون بتنفيذ ما يطلب منهم بصدد الأســـتيلاء علـــى الآثار الحضارية التي يمكن العثور عليها في البلدان التي كـــانوا يســـتعمرونها ، مستخدمين لذلك شتى الوسائل .. ولهذا نرى فهارس المخطوطات العربيـــة فـــي مكتبات أوربا وأمريكا تحتوي على أعداد كبيرة من أسماء الكتب والمخطوطـــات التي نهبت من مختلف الأقطار العربية . وهكذا سيطرت دوائر الاستشـــراق فـــي العالم على معظم مصادر الحضارة العربية ، وبخاصة الأندلسية منها ، فجـــاءت

نظريات المستشرقين وآراؤهم حول العديد من الموضوعات المركزية في تلك المصادر تصب في الاتجاهات المرسومة لها من قبلهم مسبقاً .

وانطلاقا من تحسسنا بهذه الحقيقة ، ومسؤولياتنا العلمية بشأنها ، علينا أن نبادر إلى موقف (المواجهة) الفعلية ، بكل ما تتطلبه من استعداد ، وإيمان ، وحماس، فتكون هناك (قراءة علمية) لما ورد في أبحاث المستشرقين من آراء ونظريات حول القضايا المركزية في تاريخنا الحضاري ، وتقويم تلك الآراء بكل دقة ، من خلال منهجية علمية ، موضوعية غير منغلقة بدائرة (رد الفعل) ، وقادرة على موازنة الأهتمام بين معالجة ما يتعلق بالماضي ، وبين مواكبة الحاضر بفاعلية ، بحيث تكون عملية المعالجة هذه جزءً من حركة إغناء واقع المعاصرة مع خلق الموصلات المستقبلية المتطورة ضمن إسهامنا في حركة الإبداع الحضاري الإنساني ، باعتبار ذلك منطلقاً مركزياً لرسالة أمتنا عبر تاريخها المجيد ، وهدفاً رئيساً من أهداف مشروعنا النهضوي الحضاري الراهن.

في ضوء ذلك كله ، رأيت من الضروري التصدّي لأهم الموضوعات التي بحثها المستشرقون في أدبنا وحضارتنا من خلال دراسة متكاملة ، وتنفيذاً لذلك وجدت من المناسب البدء بتحديد أطار عام أوطئ به لذلك ، وهو صورة تاريخية للقاء بين حضارتين : حضارة عربية إسلامية ، وحضارة أوربية مثقلة بألوان شتى من حضارات قديمة أخرى . ومن خلال ذلك تحدد بعض الموضوعات البارزة التي تطرق إليها المستشرقون ، وتناقش آراؤهم فيها . وقد أنتهجت هذه الخطة لقناعتي الشخصية بأن الأدب العربي ، بما فيه من مقومات اللغة ، والأفكار، والرؤى ، يمثل الركيزة الأولى للحضارة العربية ، ووحدتها القومية ، مما يجعل من غير الممكن دراسة هذا الأدب على أساس الأقليم الجغرافي ، أو العصر التاريخي - لوحدهما - وإن من الضروري أن تكون منهجية الدراسة الأدبية الربط بين الأدب بعناصره المختلفة - من جهة ، وبين المناخ العام الذي تتفاعل ضمنه جميع العوامل البيئية الأخرى (جغرافية ، وتاريخية ، وسواها) من جهة ثانية ، مع المحافظة على أهمية النص الأدبي في اعتماده أساساً للتحليل

والتتبع ، واستنباط الرؤى من خلال الارتباط العضوي بين ذلك النص والمنطلقات البيئية التي أشرنا إليها تواً .

وأنطلاقاً مما ذكرت ، أرتأيت أن يكون هذا البحث مستهدفاً الإجابة عن سؤال مركزي معين : هل أن الأدب العربي في الأندلس هو أدب حضارة ؟ ويتضمن (البحث) – بعد هذا التمهيد – محورين رئيسين ، وخاتمة .

المبحث الأول – الحضارة العربية في الأندلس ، تفاعلها مع الحضارات الأخرى.

المبحث الثاني :

١ – الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية .

٢ – مؤثرات الشعر العربي الأندلسي في الشعر الأوربي .

٣ – صور التأثير : آراء ونظريات المستشرفين في ذلك .

خاتمة

المبحث الأول
الحضارة العربية في الأندلس
وتفاعله مع الحضارات الأخرى

يتداخل مفهوم (الحضارة) مع مصطلحات أخرى في معظم اللغات العالمية. ففي اللغات الأوربية تستعمل لفظتان للدلالة على معنى الحضارة هما (Culture) و (Civilization) ويبدو انهما قد مرتا بتطورات متشعبة في المفهوم ، لسنا بصددها هنا ، بيد أننا لابد من ان نحدد المفهوم الذي يدور في نطاقه حديثنا الآن : فالثقافة (Culture) مأخوذة من اللاتينية ، ودلالتها في العصور القديمة والوسطى مقصورة على معنى مادي هو (تنمية) الأرض ومحصولاتها . وتطورت في العصور الحديثة لتشمل مدلولين مادي وعقلي ، كما تطورت مرة أخرى في القرن الثامن عشر فأصبحت تدل على تنمية العقل والذوق ، ثم إلى حصيلة هذه العملية . أي المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التي نعبّر عنها بلغتنا بلفظ (الثقافة) ، و

(المدنية أحياناً) . ولا يزال هذا المعنى هو السائد في اللغات الغربيـــة . ومفـــهوم (الحضارة) لدينا هو المعنى الواسع الحقيقي الذي يتناول حياة الإنسان بأجمعـــها ، ليس بمظاهرها الخارجية حسب ، بل ، كذلك ، وبالدرجة الأولى نظم تلك الحيـــاة وبرامجها الروحية والعقلية لتطوير تلك الحياة وإعلائها باستمرار وفـــق المبـــادئ والقيم الإنسانية ، الثوابت منها والمتغيرات .. وهذه هي خصائص حضارتنا التـــي نتحدث عن بعض جوانبها الآن[١] .

كان فتح العرب لشبه جزيرة ايبريا حدثاً مهماً في التاريخ الإنساني ، لأنـــه مهّد لبزوغ عصر حضاري جديد في أوربا شكل المرحلة الأنتقالية لتاريخ العـــالم الأوربي من عصر التخلف في القرون الوسطى إلى عصر النهضة ، والصناعـــة التي يعيشها عالم اليوم ، فقد ورثت الأندلس حضارة الشرق الإسلامي ، فوجـــدت هذه الحضارة في أرضها الجديدة عوامل نمو وتطور فتفـــاعلت مـــع حضـــارات أخرى ، وكان لها عطاؤها التاريخي المشهود ، فأكدت أصالتها من خـــلال ذلـــك التمازج الحضاري ، وجعلت من الأندلس مركز إشعاع حضاري عربي إســـلامي لأوربا والعالم .

لقد دخلت اللغة العربية وآدابها إلى أسبانيا عنواناً بـــارزاً لثقافـــة العـــرب وحضارتهم ، بكل ما يعنيه مصطلحاً (الثقافة) و (الحضارة) من مفـــاهيم ماديـــة وفكرية ، ذلك لأن العرب قد أحدثوا لهم وجوداً في حياة ، وقيم ، وأفكار – كمـــا أوجدوا أيضاً وسائل وتقنيات معينة ، فكان لهم ذلك الوجود التـــاريخي بطـــرازه الخاص ، وبمؤسساته وقواعده الخاصة .. وكانت اللغة العربية الأطار العام لذلـــك الوجود ، والمرتكز الموضوعي له ؛ إذ أن اللغة عامل أساسي في تقريـــر صفـــة الثقافة ، التي هي المنطلق المركزي لصفة الحضارة ، تـــأكيداً لرفـــض العـــامل العنصري في العملية الثقافية والحضارية بمفهومها الإنساني ، الذي تساهم بموجبه جميع والعناصر البشرية . وقد كتب العديد من الباحثين الغربيين بهذا المعنى[٢] .

لقد دخل الشعر العربي أوربا بكل أبعاده المعروفة بوصفه (ديوان العرب)، فكان دخولاً يتزامن مع التاريخ ، متفاعلاً مع عناصره ومتغيراته ، وكانت بعدئـــذٍ

تلك الصفحات الخالدة في حضارة الأندلس بما حملته من أضـــاءات واضافـــات ، أشير أليها . ولكن ضاع معظمها وندر ما بقي منها بين أيدينا . والأدب الأندلسي ، والشعر منه بخاصة ، ليس إل أحدى مراحل تاريخ الأدب العربي العام ، وأحـــدى فضاءاته الحيوية التي مثلت قدرة هذا الأدب على الانتشار والتأثير في آداب الأمـم الأخرى طول الوجود العربي في أسبانيا ، وبعد ذلك ، وحتى الآن – أثبت خلالها أصالة منطلقاته الحضارية وخصائصه الإبداعية التي انتزعت اعتراف العديد مـن المستشرقين على الرغم من حملات التشويه والتضليل التي قامت وتقوم بها معظم المراكز الاستشراقية ضد تاريخنا الحضـــاري ، وأبـرز هـؤلاء المستشـرقين المنصفين الذين درسوا الحضارة العربية في الأندلس بمنهجيـــة علميـة وذهنيـة موضوعية محللاً آثارها في صميم الحياة الأسبانية المادية والروحية ، وكذلك فـي تاريخ أوربا بصورة عامة ، والعالم – المستغرب الأسباني الكبير آنخل غونثـالث بالنشيا (Angel Gongalez Palensia) – (١٨٨٩-١٩٤٩) الذي كان له فضـل السبق إلى أدراك حقيقة علمية مهمة في ميدان الدراسات الأندلسية هي التأكيد على ضرورة الرجوع إلى المصادر الحقيقية لتاريخ الحضارة الأندلسية ، وذلـك مـن خلال المصادر العربية نفسها ، مما يستدعي دراسة اللغـة العربيـة وانتقائـها ، ومقارنة المراجع العربية باللاتينية قبل إصدار الاستنتاجات في ضـوء المراجـع غير العربية وحدها . وقد أنتهج (بالنشيا) هذا الأسلوب فحقق إنجـازات علميـة كبيرة، بتحقيق بعض المخطوطات ونشرها أول مرة بعد الحصـول عليـها مـن مكتبات العالم المختلفة ، كما وضع دراسات مفيدة عن موضوعات في الحضـارة الأندلسية ، سنأتي على ذكرها . وقد ضمت مدرسة الاسـتعراب الأسـبانية منـذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن عدداً من الباحثين المعروفين الذين سنتطرق إلى أعمالهم .

يرى المؤرخون إن تحديد بداية لتاريخ الحضارة الأوربية أمر شائك ، بيـد أن هناك ما يدعو إلى أن تكون تلك البداية في عهد السلالة الثانية لملوك فرنسـا (الكرولنجية) ، وذلك حين تبلور معنى أوربا ، وكيفية تكونها الحضاري ، وطبيعة

ذلك التكون . وهنا كان لابد من الأعتراف بأهمية بروز الحضارة العربية الإسلامية في المحيط الأوربي والعالمي ، وسيطرتها على البحر الأبيض المتوسط خلال القرون الوسطى . وهذا هو ما دعا الغربيين إلى أن يقرروا : "أن انبراطورية الفرنجة أرست لأوربا القرون الوسطى أسسها وقواعدها ، ولكن أوربا لم تكن لتتوحد بدون الإسلام ؛ فتاريخ المملكة الفرنجية يقسم إلى قسمين متباينين ومتناقضين : الأول ما زال رومانياً متوسطياً ، والآخر لم يبق له أثر ، وبين الأثنين تركز الهجوم الإسلامي الذي قضى على وحدة البحر المتوسط ربيبة العهد الأنبراطوري الروماني"(٣) .

وحول العصور الوسطى يدور خلاف بين المؤرخين الغربيين فيما يتعلق بوجهات نظرهم حول فلسفة تلك الحقبة التاريخية ، فمنهم من يرى أن القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانا يمثلان مرحلة انتقال حاسمة بين عصرين متناقضين تماماً "تناقض الظلمة والنور" ، "وكأن ثمة هوة غير معبورة بين الفكر كما خلفه اليونانيون في القرون الثلاثة الأولى للمسيحية وبين الفكر الذي بدأ به العصر الحديث في القرن الخامس عشر أو السادس عشر"(٤) . أن مثل هذه النظرة لا تتناقض ومنهج البحث العلمي في التاريخ حسب ، بل هي ، أيضاً ، دلالة واضحة على خطأ جسيم في تزييف صورة التاريخ العام وتطور الحضارة . ويبدو جلياً أن أصحاب هذه النظرية القائلة بالفصل الحاسم بين حضارة أوربا في العصر الوسيط ، وفي عصر النهضة الحديثة ، كانوا يستهدفون إلغاء عصر تاريخي مهم جداً هو العصر الوسيط ، الذي كان الأساس الذي بُنيت عليه الحضارة الحديثة ، ذلك لأن العرب كان لهم الدور الأول ، والرائد في الحركة الحضارية لذلك العصر ، كما أقرته دراسات بعض المستشرقين المنصفين . أن مثل هذه الآراء في تاريخ الحضارات يتضح وجه الخطأ فيها بقدر اتضاح أهدافها ومقاصدها المخطط لها مسبقاً ، وسرعان ما يكشف المنهج العلمي الموضوعي حقيقه تلك الأهداف والمقاصد ؛ فالحضارة – كما هو معروف – ذات مفهوم مركب تعددي ، غير أحادي ، شأنها في ذلك شأن الأمم . "فيكون رأي المؤرخ نفسه في التاريخ جزءاً

صغيراً من التاريخ ، وهذا في جوهره تاريخ غيره من الناس ، وليس تاريخه هو" كما يرى أرنولد توينبي[٥] ، ذلك لأن الحضارة هي حركة وليست بسكون ، ولم تصل أية حضارة معروفة إلى هدف الحضارة بعد ، وهي باقية أبداً كذلك .

إن سياسات (الهيمنة الأحادية) و (الشمولية الغربية) التي تستهدف تركيز صورتها بمفهوم القوة الحضارية غير المعزولة عن القوة المادية بجميع صيغها التقنية (التكنولوجية) او الاقتصادية وحتى العسكرية .. لا أستعيد – فيما أرى – أن يكون ذلك صدى تاريخياً ، من حيث المنطلقات والأهداف ، لمركبات نفسية من مخلفات الماضي التي تشكل لها ردوداً مختلفة الصور . ولعل الصورة الأخيرة التي يتخذ لها واجهة ما يسمى بـ (النظام العالمي الجديد) لاشك في أن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تعطي أوضح الأمثلة عليها .

الحضارة الإنسانية الحقة تكون بعيدة في جميع تفاصيلها الفلسفية عن نوازع التوسع من أجل السيطرة والهيمنة . والتاريخ بكل عصوره يقدم على ذلك الأدلة الواضحة ، ويجدر بنا أن نتذكر ما يقرره واحد من كبار مؤرخي الغرب المعاصرين ، أرنولدينبي بهذا الأمر قائلاً : ((إن أوربا الغربية قامت بمحاولتين فاشلتين لبسط نفوذها قبل أن يتاح لها النجاح في النهاية . أولى هاتين المحاولتين هي الحركة التي قامت بها في العصور الوسطى في عالم البحر المتوسط ، وأسهل الأسماء العامة التي تطلق عليها هو أسم الحروب الصليبية . وكانت المحاولة الثانية هي ما قام به الأسبان والبرتغاليون في القرن السادس عشر الميلادي ، وكانت محاولة ناجحة إلى حد ما في العالم الجديد ، فالجماعات الأمريكية – اللاتينية تدين بوجودها لهذه المحاولة ، بيد أن الحضارة الغربية التي نشرها الأسبان والبرتغاليون لم تلق القبول في أي مكان بعد تجربة أستمرت زهاء قرن من الزمان . ومن دلائل فشل هذه المحاولة الثانية طرد الأسبان والبرتغاليين من اليابان ، وطرد البرتغاليين من الحبشة في الربع الثاني من القرن السابع عشر.))[٦]

إن حضارة العرب في الأندلس ، والدور الذي لعبته في تاريخ أسبانيا ، وأوربا لابد من أن يثير عناصر معينة في أوساط المستشرقين فيحاولوا الدس والتخريب العلمي من خلال آراء ونظريات تعصبية حاقدة لا علمية ، ومن هؤلاء زعيم حركة التعصب آرنست رينان E. Renan (١٨٢٣-١٨٩٢) الذي زعم أن الحضارة العالمية مقتصرة على أوربا ، فهي القارة التي كانت مهداً لنشوء العلوم والفنون ، والأنظمة ، وما عداها شعوب آسيا وأفريقيا ، لا نصيب لها من كل ذلك، وهم أمم بسيطة دون مستوى الأمم الأوربية . ومن الطبيعي أن مثل هذه النظريات المدانة فكرياً وعلمياً وإنسانياً لا قيمة لها ، فهي تغفل في الأساس حقيقة علمية ثابتة هي أن الحضارة تراث مشترك بين بني البشر ، ساهمت في خلقه وتطويره وأستمراره أمم كثيرة ذات ثقافات مختلفة . وهذا الأرث البشري المشترك الذي هو حصيلة تمازج وتفاعل عبر عصور مختلفة بين ثقافات مختلفة لأمم متعددة يولد حقيقة طبيعية هي أن الحضارة البشرية لا يمكن ان تكون بجنسية واحدة بعينها ، ولا هي خاصة بعرق إنساني بعينه .. أنما يمكن – فقط – تأشير أدوار مختلفة لهذه الأمة أو تلك في تاريخ هذه الحضارة العامة ، عبر عصورها ، وتطوراتها ، وضمن مفهوم الدوائر التاريخية غير المنغلقة[٧] .

وفي هذا المجال لابد من الإشارة إلى ما قرره منذ عام ١٧٨٢ الأب آليسوعي الأسباني خوان اندريس Juan Andre's حول أثر الثقافة الأندلسية في الثقافة الأوربية بقوله : ((أنه رأى الشعب العربي قد بلغ في العصور الوسطى قمة الحضارة والتمدن في حين كانت الشعوب الأوربية شديدة التأخر ، فأستنتج أنه لابد من أن يكون الشعب الراقي قد علّم الشعوب المتأخرة أصول المدنية))[٨] ، وعزز ذلك بأمثلة وشواهد . وفي ميدان الأدب استنتج خوان أندريس أن الشعر الأوربي نشأ لأول مرة تقليداً للشعر العربي ، وقال : ((لو لم يكن للعرب فضل إلا أنهم صانوا العلم وحفظه في الوقت الذي أهمله فيه الأوربيون ، ثم قدموه إليهم بعد ذلك بكرم وسخاء لكانوا جديرين من العلماء المحدثين بكل شكر وأعتراف بالجميل..))[٩] وأستنتج الأب أندريس أيضاً أن الشعر البروفنسي (نسبة إلى منطقة

بروفنس في جنوب فرنسا) المعروف بآلتر وبادور هو الآخر ينتسب إلى العـــرب أكثر مما ينتسب إلى اليونان والرومان . كما تشير الدراسات الأستعرابية من ناحية أخرى إلى أن (خوان أندريس) كان أول من أكد مراراً على أن إعادة ارساء قواعد للدراسات اللاتينية – الأغريقية الناضجة في أوربا يرجع الفضل فيها إلـــى الأدب العربي[١٠] .

أما المستعرب الأسباني (رامون منندث بيلايو) Ramon Menende'zy Pelayo فقد كان في القرن التاسع عشر أول من أستنتج حقيقة تاريخية ثابتة هي : "أن تاريخ أول نهضة علمية في العصور الوسطى لا يمكن تفسيره بمعـــزل عـــن تأثير أسبانيا المسيحية ، وبخاصة معهد طليطلة وما حققه من مجد علمـــي ، وإن هذه العلوم الأسبانية المسيحية ، بدورها ، لا يمكن تفسيرها هي الأخرى ، بمعـزل عن الأطلاع الواسع على العلوم العربية الأسبانية التي كان المترجمون لـــها مـــن المستعربين MOZARABES والمدخين MUDEJARES ، واليهود . وكـــل ذلك يشكل تركيباً غير قابل للتجزئة ، هو بنية التاريخ العلمي للعصر الوسيط فـــي أسبانيا ، وخارج أسبانيا"[١١] .

وفي الخمسينيات من هذا القرن (١٩٥٣) أكد الفيلسوف الأسباني المعروف (خوسية أورتيغا أي غاسيت) Jase' Ortega Y Gasset (١٨٨٣-١٩٥٣) قائلاً: ((مازلت أرى منذ سنوات عديدة أن العصر الوسيط الأوربي لا يمكن أن نتحســـه جيداً إذا أقتصر بحثنا في التركيز على تاريخ تلك القـــرون الوســـطى بمنظـــور المجتمعات المسيحية ؛ فالعصر الوسيط الأوربي لا يمكن في الحقيقة فصله عـــن الحضارة الإسلامية ، إذ أن هذا العصر هو حصيلة تفاعل أكيد ، سلبي وإيجـابي ، بين الديانتين الإسلامية والمسيحية لدى تعايشهما علـــى أرض مشـــتركة محمّلـــة بالثقافة الأغريقية – الرومانية))[١٢] . والحقيقة أن (غاسّيت) حين يقـــرر أن مـــن القضايا الكبرى في التاريخ الوسيط ، التي لم توضح حتى الآن ، وهي ان العصـــر الوسيط الأوربي لا يمكن فصله عن الحضارة الإسلامية ، إنما هو أعتراف صريح

بأن الإسلام بدأ ديانة قومية للعرب ، وديانة عالمية لكل البشر في الوقت نفسه[١٣]، كما يقرر ذلك أيضاً المؤرخ الكبير أ. تورنبي[١٤] .

كان دخول العرب المسلمين إلى أسبانيا بعد دخول القوط VISIGODOS إليها بشكل آخر حدث كبير في تاريخها . ولم يكن ذلك غزواً (Invasion) كما ورد كثيراً في لغة بعض المستشرقين ، بحكم قرائن كثيرة وحقائق معروفة ، بدءً من الحجم المحدود للقوات التي دخلت (العربية والبربرية) في المراحل الثلاث للعبور ، وكذلك الدعوة التي وجهت للعرب بصدد العبور إلى شبه الجزيرة ، وظروفها ، وتفاصيل الأوضاع السياسية في داخل شبه الجزيرة الإيبرية ، وأقاليمها خارج أوربا ، وأنتهاء بقصة (يوليان) حاكم سبتة مع (لذريق) ، وغيرها، وهو ما أجمعت عليه معظم المراجع التاريخية عربية وأجنبية . لقد عرفت أسبانيا قبل العرب شعوباً عديدة ، وصفت بكونها (رعوية) جاءت إليها في موجات غزو على الانبراطورية الرومانية ، لذلك كانت سرعان ما تنحسر بعد أن تغزو ، وهي مختلفة اختلافاً جوهرياً عن العرب الذين جاءوا من شبه الجزيرة العربية يحملون الرسالة الإسلامية ، وتراثاً حضارياً عربياً متفاعلاً مع حضارة العالم القديم الأغريقي – الروماني ، مما جعل دولة الإسلام في الأندلس تشبه إلى حد كبير بيزنطية ، فكانت استمراراً آخر للفترة الرومانية المتأخرة بصيغة جديدة ، ذات تأثير واضح في فرض الطابع الشرقي على حضارة الفترة المذكورة التي كانت تضم في تركيبتها طلائع أناس من شبه الجزيرة العربية وما حولها .. وهكذا فإن العرب المشارقة الذين فتحوا الأندلس كانوا قد صاغوا حضارة إنسانية قوامها عناصر بشرية متمازجة : عربية مشرقية ، ولاتينية ، شكلت تراكماً تاريخياً على مدى كل الفترة للانبراطورية الرومانية ، فكانت قرطبة كقطعة نقود بوجهين متكاملين ، الأول عربي متأثر بالأغريقية – اللاتينية ، والثاني أسباني مشبع بالصبغة الشرقية[١٥] .

إن وجود العرب في شبه الجزيرة الأيبرية كان حضوراً خلاقاً لتاريخ أمة ذات إرث ثقافي واسع أصيل ، وقد منح هذا الحضور الخلاق أسبانيا تماسكاً ثقافياً

عاماً ، ونظاماً سياسياً موحداً لتشكيل الدولة المستقلة ذات الحدود الأقليمية الخاصة بها ، كما حصل في تشكيل الدولة القرطبية ، بعد أن كان سكانها أمشاجاً من قبائل، وأعراق ، ومدن متفرقة . وكانت الهضبة الجنوبية من أسبانيا عبارة عن مجموعة من الأقاليم خضعت لانبراطوريات ذات صبغة عامة متوسطية أحياناً ، وعالمية أحياناً أخرى . وفي عهد القوط كانت هذه المنطقة قطاعين : الأعلى مع القوط ، والأسفل مع الأسبان الرومانيين[١٦] .

إن التمازج الثقافي بين العرب والأوربيين كان عاملاً مهماً في النهضة الأوربية . يقول روجر بيكون : ((إن وجود الفكر الأوربي ، والعلم الأوربي كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية . لقد دُعيت أوربا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهي مدينة بكل مقوماتها إلى العالم الإسلامي))[١٧] .

وبين الأندلس والمشرق العربي الإسلامي كانت هناك علاقات ثقافية مزدهرة ، فخلال القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادية (الثاني – الرابع الهجري) كان البحر الأبيض المتوسط (Mare Nostrum) يسمى بحراً إسلامياً حقيقياً ، تنخر فيه السفن من شواطئ الشرق بأتجاه أسبانيا لا تحمل بضائع تجارية حسب ، بل حجاجاً ، وأيضاً ، ورجال أدب وعلوم .. كما كان الكثير من العرب الأسبان يخرجون من أسبانيا صوب الشرق لزيارة المدارس الكبرى في مصر والعراق وسورية والحجاز ، وأشير إلى هذه الحركة بالرحلة في طلب العلم . وكانت هذه العلاقات بين أسبانيا والشرق قد بدأت في زمن عبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٣٨ هـ = ٨٢٢-٨٥٢ م) مشكلة ظاهرة حضارية كبرى في ذلك العصر الوسيط ، ولعلها تعدّ أول ظاهرة في تاريخ الأمم والشعوب ، وهي ظاهرة التمازج – او التناضح الثقافي (OSMOSIS) ، تلك التي بنيت على أسس ومبادئ لمفاهيم فكرية جديدة للحضارة الإنسانية بأتجاه ما يسمى حقيقة بالتكافل الثقافي Simbiosis Cultural ، كالذي حصل بين العرب والأسبان فيما بين القرنين الثاني والتاسع الهجريين (الثامن – الخامس عشر الميلاديين) وما نتج عنه،

وأسموه بتناضح الحضارات Osmosis de Civitizaciones بين الأمم .. وهو أيضاً ما حصل بين الغرب الإسلامي الذي كان مركز إشعاع حضاري كبير في أوربا ، وبين الغرب المسيحي الذي كان غارقاً في حمأة التخلف والجهل ، ليس بالنسبة لشبه جزيرة أيبريا حسب ، بل بالنسبة للقارة الأوربية جميعها ، مما يؤكد حقيقة تاريخية كبرى هي أن الفتح العربي لأسبانيا كان فتحاً حضارياً بكل أبعاده التاريخية والإنسانية[١٨] .

وهنا نشير إلى بعض المؤرخين الأسبان ممن دفعتهم نزعة التعصب ضد العرب والإسلام فحادوا عن منهجية البحث الموضوعي ، فعملوا على ترويج فرية مؤداها أن شبه جزيرة أيبريا قد أصابها التأخر جراء الفتح العربي ، في الاقتصاد والسياسة ، مما أدى إلى تخلفها عن ركب الأقطار الأوربية الأخرى . ومن هؤلاء (سانجيث البورنوس) Sanchez Albornos [١٩] . وقد انبرى لآراء البورنوس هذه باحث أسباني آخر هو (امريكو كاسترو) Americo Gastro ففند تلك الآراء، مؤكداً أنه – هو شخصاً – قد أفاد من الإسلام وتراثه تفسيراً لحقائق كثيرة لم يكن بأمكانه معرفتها من خلال النظر إليها من الجانب المسيحي في العصر الوسيط . كما أكد أيضاً أن الفتح العربي الإسلامي لشبه جزيرة ايبريا كان حدثاً حضارياً لم ينقطع بمجرد خروج العرب من غرناطة عام ١٤٩٢[٢٠] .

لقد وصف المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال Levi-Provensal المؤرخ (البورنوس) ، الذي كان سياسياً ، جامعياً ، دبلوماسياً ، ووزيراً لبلاده . وصفه بأنه كان متحمساً لأن يرى بلاده أسبانيا تنفض عن نفسها غبار ماضٍ ما زال يثقل روحها ، ويعترف بأن للتراث الإسلامي تأثيراً عميقاً على الفكر الأسباني ، مؤيداً رأي الباحثين حول تألق حضارة أسبانيا الإسلامية ودورها الحاسم في تكوين الفلسفة والعلم ، وثقافة أوربا المسيحية بكاملها ، إلاّ أنه ، من ناحية أخرى ، يرى بألم كيف انقضت عدة قرون بدون أن تعمل النهضة من جديد على تفجير ينابيع كادت تنضب ، "بعد أن كان نهر الحضارة الذي يتدفق في قرطبة يحفظ جوهر

الفكر القديم وينقله إلى العالم الجديد"[٢١] وهو يرى أن أوربا الآن تنمو في التعاسة والإنحطاط .

لقد كانت العلاقات بين العرب وأوربا في القرون الوسطى موضوعاً لبحوث ودراسات مختلفة ، طرحت فيها آراء ونظريات متباينة ، يمكن ملاحظة تيارين متضاربين منها ، الأول : يتوسع في الحديث عن التداخل بين الإسلام والمسيحية في الغرب الوسيط في المجالات الثقافية بمعانيها الشاملة ، الفكرية والسياسية والاقتصادية والفنية ، وسواها . وإن الحضارة الإنسانية أرث مشترك لبني البشر في كل البقاع والعصور . والتفاعل ، وتبادل المؤثرات الحضارية بين هذه الشعوب ، قد وجد مع هذه الشعوب ، ويبقى قائماً ما دامت تلك الأمم والشعوب قائمة . ويعترف المؤرخون بما كان للإسلام من دور فعال في ربط الحلقات الحضارية في التاريخ قديمها بحديثها . يقول كويلريونج : ((أن أهم خدمة أداها الإسلام للمسيحية كانت نقل كثير من الثقافة الكلاسيكية ومعارف العالم القديم التي كان البرابرة – في العصور المظلمة التي جلبوها – قد قطعوا سلسلتها في أوربا ، ففي الأحياء الشرقي الذي كان مركزه بغداد ترجمت الأعمال العلمية والفلسفية العظيمة التي خلفها القدماء من اليونانية إلى العربية ، ولم يكن الباحثون ورجال العلم الإسلاميون مجرد نقله ، ولكنهم عدلوا التراث الكلاسيكي وأعادوا خلقه ، وأخرجوا منه ثقافة جديدة .. وكانت اعظم الميادين التي عني بها الإسلام من المعارف الكلاسيكية الفلسفة والعلوم))[٢٢] ، كما أن هناك بحوثاً أخرى بهذا الأتجاه تؤكد جميعها ((أن الثقافة الحديثة ، والغربية منها بخاصة ، أنما نمت وبلغت المستوى الذي بلغته على أساس من الجهود العربية السالفة في الحقول الثقافية))[٢٣] .

أما التيار الثاني ، المناقض ، فقد كان يعكس ضغائن واحقاداً تنطلق من هواجس ممتزجة بمشاعر الأعجاب من جانب العالم المسيحي تجاه المسلمين وحضارتهم في القرون الوسطى ، كما يصورها الباحث (غوستاف غرونباوم) بقوله : ((لقد كان العالم المسيحي يخص الإسلام بأهتمام يفوق ما كان يتلقاه ،

والظاهر أن عوامل البغضاء والخوف والأعجاب كانت تعيش مجتمعة في عالم المسيحية طوال القرون الوسطى))[٢٤] .

ولعل ما ذكره المستشرق الفرنسي (ليفي بروفنسال) من رأي في هذه المسألة يشير بوضوح إلى أن الثقافة الأندلسية حينما أستكملت عوامل منعتها وشخصيتها عرفت كيف تفرض نفسها خارج الحدود الإسلامية ، فأورثت شبه جزيرة أيبريا ميراثاً ثقافياً ، اختلفت فيه الآراء ، فكانت هناك أصوات حاقدة صدرت من كتاب ليسوا من الأسبان ، كما أنهم ليسوا مؤرخين أو مختصين بأسبانيا ، ولا بالإسلام .. هذه الأصوات تلقي على المسلمين تبعة (أحداب) أسبانيا، و (إخلائها من السكان ، وجعلها صحراء مثل افريقيا الشمالية)[٢٥] . ويذكر (بروفنسال) أيضاً عن هذه الأصوات الحاقدة كذلك قولها : (اقل ما يمكن أن يقال أن السيطرة الإسلامية كانت مصاباً جسيماً حل على أسبانيا)[٢٦] ، ويعقب على ذلك بقوله : (ما من أحد مثقف في أسبانيا اليوم يجرؤ على أن يكوّن حكماً مفرطاً في المبالغة إلى هذا الحد)[٢٧] ، ويقول أيضاً : (ويقسم المرء لدى قراءته ما كتبوا على أنهم لم يسمعوا أبداً خرير نوافير الماء في قصر الحمراء ولم يستنشقوا أبداً العبير الرقيق المعطر في الـ CAZAR ، قصر أشبيلية)[٢٨] .

في الوقت الذي أجد نفسي متفقاً مع من يرى في (تعقيبات) المستشرق بروفنسال هذه موقفاً إيجابياً في الردّ على ما أسماه بالأصوات الحاقدة ، إلا أننا في الحقيقة لا نجد في هذه التعقيبات صورة دقيقة للرد المقنع علمياً على مثل هذه الأحكام غير الموضوعية ، كما أعتدنا أن نرى في كتابات بروفنسال . ولعلنا نلاحظ أن في هذه التعقيبات قدراً واضحاً من التحفظ والحذر ، مما قد يكون تعبيراً عن درجة القناعة الشخصية بحقيقة المضامين المطروحة ، وإذا كان الأمر كذلك فأن المحافظة على الدقة في المناقشة وتحديد الرأي العلمي الواضح تبقى مسألة ضرورية ، وبخاصة بالنسبة لمستشرق كبير معروف مثل ليفي بروفنسال .. وعلى كل ، آمل ألا يكون رأي (غرونباوم) الذي أشرنا إليه قبل قليل ، يصدق على بروفنسال نفسه أيضاً .

المبحث الثاني
١ – الأدب الأندلسي في الدراسات الاستشراقية

الأدب في المفهوم العربي ، ومنذ القدم ، إصطلاح يعني جملة المعارف التي تمثل مستوى الثقافة الذهنية ، وتستهدف تأصيل العلاقة بين الفرد والمجتمع . وإذا كان الشعر ، وهو فرع مهم من الأدب [ديوان العرب] – أي سجل حياتهم وتاريخهم ، فإن هذا الأدب في الأندلس قد بقي على خطهِ التاريخي العام ، يحمل مؤشرات أساسية للحياة ، قيمها وتفاعلاتها ، وعلى مدى قرون ثمانية كان خلالها أدب عربية وعروبة في أرض شهد أديمها أجناساً شتى ، وتفاعلت فيها ثقافات مختلفة خلفت مبادئ وقيماً لحضارة إنسانية ساحقة هي أساساً الحضارة المعاصرة في عالم اليوم . لقد كان الأدب العربي الأندلسي يستغرق ، بحكم الظرف التاريخي، قضايا الحياة بمجموعها ، وبكامل أبعادها ، فقد كان قاعدة الحضارة للوجود العربي وبالمفهوم الإنساني العام ، فكانت ذاكرة هذا الوجود ، وهويته عربية مبينة ، هي لغة الضاد التي شرفها الله بأن تكون لغة الوحي ، والتنزيل الكريم لآخر رسالة سماوية ، فكانت (لغة الأعجاز البلاغي) ذات الرسالة المتكاملة في مفهوم عظمة الإيمان ، وجلال الفكر المعبر عن حضارة الإنسان . وقد تنبه إلى هذه الحقيقة المؤرخ الأسباني (فدريكو كاسترو) Federico Gastro فأقرّ بأنه (يجد في الإسلام وتراثه تفسيراً لكثير من الحقائق التي خفيت عليه حين كان ينظر إليها من جانب واحد هو الجانب المسيحي)[٢٩] .

دخلت اللغة العربية شبه الجزيرة الايبرية بصورة تكاد تكون فريدة في التاريخ ؛ فقد وجدت هذه اللغة الجديدة في الأندلس ، وبسرعة ، طريقاً سهلاً إلى قلوب الأسبان ، وفكرهم ، وإيمانهم .. وقصة القس القرطبي ، ألفارو Alvaro Gordobes الذي شكا عام ٨٥٤ م أبناء قومه مر الشكوى ، واصفاً أياهم بأنهم فقدوا لغتهم ودينهم حين أنصرفوا عن لغتهم الأسبانية إلى اللغة العربية ، ومن مسيحيتهم إلى الديانة الإسلامية ، قصة معروفة[٣٠] .

ويشير المستعرب (جوليان ريبيرا) Julian Ribera في هذا الصدد إلى أن اللغة العربية قد دخلت صلب اللغة الأسبانية ، وقد أستقرت أربعة آلاف كلمة عربية في الأسبانية ، وبذلك تكون اللغة العربية أول لغة – بعد اللغة اللاتينية العامية – في إمداد اللغة الأسبانية بالمفردات التي تستعمل في المنطقتين الجنوبية والشرقية من الأندلس ، حتى بلغت اللغة العربية أهمية بالغة أعتبرت بها "خميرة اللغة الأسبانية" ليس في الصوت حسب ، بل في القواعد وشكل الكلمات ، مما أوجد سيلاً علمياً متدفقاً في ميدان علم المعجمات واللسانيات بين العرب والأسبان. ولعل من الأعمال العلمية الجليلة التي قام بها المستشرق الأسباني (آسين بالاثيوس) Asin Palcios (١٨٧١-١٩٤٤) معجم الأصوات الرومانثية (العامية الأسبانية) ، المسجلة من قبل عالم نبات مسلم أسباني (القرن ١١هـ-١٢هـ/م) كمصدر هام لمعرفة تاريخ اللغة الأسبانية القديمة ، وبخاصة ليجات المستعربين[٣١] .

وتطرق عدد من المؤرخين إلى الحالة الثقافية في الأندلس العربية ، منهم المستشرق الهولندي (رينهارت دوزي) R. Dozy (ت-١٨٨٤) الذي يقول : "لم يكن في كل الأندلس يوجد رجل أمي بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة في أوربا معرفة أولية إلا الطبقة العليا من القسس"[٣٢] . كما أن روجر بيكون Roger Bacon الإنكليزي لا يعتبره بعض المؤرخين هو "صاحب المذهب التجريبي ، بل أنه نقله إلى تلامذته من أساتذته المسلمين ، وقد صرح هو نفسه دون ملل ، بأن اللغة العربية وحضارتها الإسلامية هي الطريق الوحيد بالنسبة لكل معاصريه ، للمعرفة الحقة"[٣٣] .

لقد بلغت الأندلس أوج أزدهارها الثقافي والعلمي في زمن الخلافة الأموية، في عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) (٣٠٠-٣٥٠هـ = ٩١٣-٩٦١م) ، ومن بعده الحكم الثاني (٣٥٠-٣٦٦هـ = ٩٦١-٩٧٦م) ، وأستمر هذا التألق الثقافي بصورة عامة ، حتى نهاية الأندلس بسقوط مملكة غرناطة عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م وقد ظهر خلال هذه الفترة العديد من العلماء والفلاسفة إلى جانب الكثير من الأدباء والشعراء بخاصة . أما المكتبات فقد كانت عامرة بذخائر الكتب العلمية

والأدبية التي اجتلبت من جميع اقطار العالم آنذاك ، وتروي لنا المصادر أنه كان في زمن الحكم الثاني (المستنصر) سبعون مكتبة عامة في قرطبة عدا المكتبات الخاصة ، ومكتبة قرطبة الرئيسة التي يذكر عنها ابن حزم : "إن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط ."(٣٤) .

إن الدور الذي لعبته أسبانيا كمعبر للثقافة العربية الإسلامية هو من الأمور المعروفة والتي أقرها البحث الحديث ، ففي أواخر القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) لمعت شخصية الراهب (خير برتو) (ريبول) Rippol الذي درس اللغة العربية في دير ريبول بقطالونية ، والذي غدا بعدئذٍ البابا سلفستر الثاني ، وزار الخليفة الأموي الحكم الثاني (المستنصر) عام ٩٧١م/٣٦٦هـ ، ويبدو أن ذلك الدير كان يحتوي على ذخيرة هائلة من المخطوطات العربية في مختلف العلوم الطبية والفلكية والرياضية ، بالإضافة إلى الآداب وغيرها . وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية وانتشرت من هناك الى القارة الأوربية . وفي القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) أنبثقت مدرسة المترجمين في طليطلة التي أصبحت مركزاً ثقافياً ليس أسبانياً حسب ، بل أوربياً أيضاً . وخلال القرن الثالث عشر الميلادي بلغت الدراسات أهمية أستثنائية ، فبالإضافة إلى الرغبة الطبيعية لرجال العلم في معرفة الثقافة العربية السائدة ، كان هناك سبب آخر جذب شخصيات كبيرة من أمثال : بدرويا سكوال Pedro Pascual ، ورايموندو مارتين Raimundo Martin وهو المعروف بأسم جربرت دي أورلياك GERBERTO DE AURILLAC ودومينغو كاتلان Dmingo Catalan ، ورايموند ولوليو Raimundo lulio (١٢٣٥-١٣١٥م) ، جذبها للغوص في أساسيات الدين الإسلامي للتمكن من تفنيد هذه الأساسيات لحمل المسلمين على الارتداد عن دينهم إلى المسيحية . ولذلك تمكن (لوليو) كبير الجدليين ، (الصوفي المسيحي) كما أسماه خوليان ريبيرا ، من أتقان اللغة العربية ، ودرس القرآن الكريم بدقة ، وأعترف بقيمته الأدبية ، وأسس مدرسة للدراسات لاشرقية في